**جامعة الجيلالي بونعامة (خميس مليانة)**

**محاضرة : قضايا في تاريخ الجزائر الحديث**

**التأثيرات التركية العثمانية في إيالة الجزائر (1)**

**الجانب الاجتماعي (البشري)**

أدّى انضواء الجزائر تحت الراية العثمانية بداية العصر الحديث إلى جملة من التغييرات كان أهمّها على المستوى الاجتماعي توطّن عشرات الآلاف من الأتراك العثمانيين في ربوع الإيالة، لكن من هم الأتراك العثمانيون؟

* **الأتراك العثمانيون**: امتاز الأتراك العثمانيّون عن باقي المجموعات السكّانيّة في الإيالة باحتلالهم لمكان الصدارة في الهرم الاجتماعي من خلال هيمنتهم العسكريّة و السياسيّة ؛ فقد كانت معظم الوظائف في جهاز الدولة من نصيبهم، و كانت لهم بذلك اليد العليا في تسيير شؤون البلاد. كما تميّز هؤلاء الأتراك العثمانيّون بكونهم ذوو أصول و أجناس مختلفة، حيث كان منهم غالبية من الأتراك بطبيعة الحال، إلى جانب الأرناؤوط، و البشناق، و الأكراد، و الإغريق، و البلغار، و البغدان، و التشيك، و الأرمن و حتّى التتار. و مع ذلك، كانوا يشكّلون مجموعة واحدة متميّزة بلغتها التركيّة و بمذهبها الحنفيّ، لكنّها غير مغلقة أو منعزلة اجتماعيًا بحكم علاقات المصاهرة الّتي جمعتها مع العناصر الأخرى.

كانت بداية أوجاق الجزائر الفعلية في أوائل سنة 1520، حين أمدّ السلطان سليم الأوّل خير الدّين بجيش قوامه ألفي انكشاري، أضيف إليهم أربعة آلاف متطوّع تركيّ من الأناضول منحوا نفس امتيازات الانكشارية. و اعتمادًا على دفاتر المخلّفات الّتي يرجع أقدمها إلى الفترة 1699-1701، لاحظ الإسرائيلي "تال شوفال" أنّه من بين 147 انكشاريًا عرف أصلهم، كان 111 منهم أتراكًا (حوالي 76 %)، و 69 جاؤوا من الأناضول (أي حوالي 62 % من الأتراك و 47 % من مجموع الانكشاريين) ؛ و هذا ما يبرز بوضوح غلبة العنصر التركيّ الأناضوليّ في تشكيل "المؤسسة العسكريّة". كما خلص الفرنسي كولومب في دراسته عن تجنيد الانكشارية في أواخر العهد العثمانيّ إلى أنّه "**من بين جميع مناطق الإمبراطوريّة، فإنّ الأناضول هي الّتي كانت تمدّ بأكبر قسم من التجنيد الجزائريّ. فمن شواطئ بحر إيجة إلى جبال أرمينيا، و من قمم قليقيا إلى ساحل البحر الأسود، لا توجد مدينة ذات أهمّيّة تذكر إلاّ و كانت ممثّلة في صفوف المليشيا**".

أما الأتراك غير الأناضوليّين، فكان مصدرهم من إقليم الروميلي و لا سيّما من مدن أدرنه (Edirne)، و تيكيرداغ (Tekirdağ)، و ملقاره (Malkara)، وسيلانيك (Thessaloníki)، و وارنه (Varna)، و صوفيا (Sofia) ؛ و من جزر الحوض الشرقيّ للبحر المتوّسط كمدلي (Mitilíni)، و كريت (Kríti)، و رودس (Rhodes)، و قبرص (Kibris).

أمّا المجنّدون من غير الأتراك، فكان الأرناؤوط (الألبان) يمثّلون أهمّ أقليّة عدديًّا في صفوف الانكشارية إذ وصلت نسبتهم إلى نحو 7,5 % في الفترة 1699-1701 (11 من أصل 147 انكشاري). و كان لهذا العنصر نفوذ معتبر في الديوان كما نستشفه من إسناد الحكم مؤقتًا للقايد مصطفى أرناؤوط عقب مقتل محمّد تكلرلي باشا في 1557، و من تولي زعيم طائفة الريّاس، مامي أرناؤوط، الحكم "بالنيابة" عن القائد رمضان في سنة 1582.

لكن بدايةً من النصف الثاني من القرن الثامن عشر، أصبحت أهمّيّة العنصر الأرناؤوطيّ مقصورة على نشاط الغزو البحريّ ؛ و ذلك إثر قيام ستة يولداش أرناؤوط باغتيال الداي محمّد خوجة ووزيره الخزناجي، في 1754.

و قد احتلّ العنصر البشناقيّ أو البوسنيّ المرتبة التالية من حيث الأهمّيّة العدديّة إذ كانت نسبتهم أزيد من 4 % (أي 6 حالات) في الفترة المذكورة. و يبدو أنّ هذا العنصر لعب دورًا بارزًا في الفترة الّتي نخصّها بالدراسة، إذ تكفي الإشارة إلى أنّ ثلاثة من باشوات الجزائر في النصف الثاني من القرن السابع عشر كانوا بشناقيين، و يتعلق الأمر بمحمّد باشا البشناقي (1651-1653)، ابراهيم باشا البشناقي (56/1657-1661) وإسماعيل باشا (1662-1685).

ممّا سبق ذكره يمكن تمييز ثلاثة عناصر أساسيّة من ضمن مجموعة الأتراك العثمانيّين هم : العنصر التركيّ، و العنصر الأرناؤوطيّ، و العنصر البشناقيّ. و ينقسم العنصر الرئيس فيها أي التركيّ بدوره إلى ثلاث عناصر فرعيّة بحسب مصدرها الجغرافيّ : الأناضوليّ، الروميلي و الجَزِيريّ.

- **الكراغلة** (جمع كرغليّ) : هم أبناء الأتراك و الأعلاج من أفراد الأوجاق، و يتوافق هذا التعريف مع ما أشار إليه القنصل الفرنسيّ "فاليير" في مذكّرته حول الجزائر من أنّ : "**الأطفال المولودين بالجزائر، و إن كانوا أبناء أب و أمّ تركيّين مشرقيّين، فلم يكونوا يعتبرون قطّ سوى كراغلة**" ؛ و كذا مع كون أحد أشهر الكراغلة محمّد الكبير أو الأكحل، فاتح وهران، من أب كردي و أمّ سودانية. و يعود أصل هذه الكلمة إلى الكلمة التركيّة المركّبة من كول "عبد، غلام" و أوغلو "ابن"، أي "ابن العبد"،حيث يعود معنى العبوديّة هنا إلى الأب الانكشاري الّذي كان يعتبر بمثابة عبد للسلطان العثمانيّ.

لقد تواجدت هذه الفئة من الموّلدين بوجه خاصّ في المدن و المواقع الهامّة الّتي كانت تتمركز بها الحاميات التركيّة مثل بجاية، و تلمسان، و عنّابة، و قسنطينة، و مليانة، و مستغانم، و المدية، و زمورة، و البليدة، و بسكرة، و معسكر. و كانت وضعيّتهم الاجتماعية متميّزة، نظرًا لانتسابهم إلى العنصر التركي المسيطر على البلاد، ممّا سمح لهم بتقلّد وظائف سامية في الجيش و الإدارة. و خلال القرن السادس عشر، عومل الكراغلة على قدم المساواة مع العناصر الأخرى المشكّلة للأوجاق و أبيح لهم شغل جميع المناصب بما فيها منصب الوالي، إذ ارتقى إلى ذلك المنصب كرغليّ شهير، هو حسن باشا بن خير الدين، الّذي حكم الجزائر ثلاث مرّات في (1545-1551)، و (1557-1561)، و أخيرًا (1562-1567).

و سجّل أوّل بروز لهذه الجماعة كفئة مستقلّة سنة 1596 عندما ثارت بعض أحياء المدينة على الانكشارية بتحريض من خضر باشا ؛ و اتّخذ الكراغلة خلال الأحداث موقفًا جليًّا ضدّ الأتراك. منذ ذلك الحين، بدأ صراع خفيّ و طويل بين الأتراك و ذرّيّتهم بلغ ذروته في سنة 1629 عندما انكشفت خيوط مؤامرة دبّرها كراغلة للاستيلاء على السلطة، فقرّر الديوان إثر ذلك نفي عددٍ كبيرٍ منهم إلى بجاية ثمّ إلى تونس كما قام بمصادرة أملاكهم. و في هذا الصدد، ذكر الأسير الإنكليزيّ "فرنسيس نايت" أنّ الأتراك نفوا أكثر من ألفين و ثلاثمائة كرغليًّ من المدينة، و ذلك على أربع مرّات ؛ و تجدر الإشارة إلى أنّ معظمهم كما أورده "**تحدّروا من الأتراك الأوائل الّذين فتحوا البلاد**".

و حوالي سنة 1633، كان قد رجع أغلب المنفيّين إلى البلاد و تحالفوا مع القبايل، حيث استقرّ بعضهم ببرج زمورة قرب مجانة، و البعض الآخر بوادي الزيتون حيث شكّلوا قبيلة الزواتنة. و حاولت ثلّة منهم في ذات السنة الاستيلاء على الجزائر على حين غرّة، فتسلّلوا إلى المدينة و اقتحموا في عمليّة جريئة حصن القصبة ؛ و كان الكراغلة قد عقدوا آمالهم على تحرّك السكّان لدعمهم، و لكن هؤلاء لم يحرّكوا ساكنًا. و في نهاية الأمر، فجّر الكراغلة المحاصرون بالقصبة مخزن البارود عند إدراكهم أنّ محاولتهم باءت بالفشل، و انتهت بذلك هذه الواقعة من ثورة الكراغلة.

رغمًا عن ذلك، بقي التحالف القبايليّ**-** الكرغليّ قائمًا و استمرّت الأعمال الحربيّة ضدّ الأتراك حتّى نهاية عقد الثلاثينات، ففي سنة 1639، تضمّن نصّ معاهدة عقدها الديوان مع القبائل بندًا خاصًّا منح الكراغلة بموجبه عفوًا عامًّا. لكن هذا الصراع الّذي دام أزيد من عشر سنين كسر شوكة الكراغلة إذ حظر عليهم الديوان الانضمام إلى صفوف الانكشارية و تولي المناصب السامية في الإدارة، و لم يفسح لهم المجال سوى في الغزو البحريّ ؛ و تجدر الإشارة إلى أنّه، خلال فترة الآغوات، شغل منصب القبطان رايس كرغليّ اسمه قارة إبراهيم.

و يبدو أنّ وضع الكراغلة تحسّن عقب انقلاب الآغوات، إذ سمح لهم من جديد الانخراط في أوجاق الانكشارية(3). ففي "مشروع حملة على الجزائر" الّذي يرجع تاريخه إلى بداية الستّينات، هناك إشارة إلى وجود نحو 1.200 ولد مدوّن في دفاتر الانكشارية، كان معظمهم بلا شكّ من الكراغلة. كما أكّد ذلك الفارس دارفيو في سنة 1674 لمّا ذكر أنّ "مليشيا الجزائر" كانت تتشكّل من الأتراك و الكراغلة و الأعلاج، غير أنّه أشار إلى أنّ أبناء الكراغلة يفقدون هذا الامتياز : ذكر القنصل "فاليير" في هذا الصدد أنّ "ابن الكرغلي الّذي أهمل أو لم يستطع تسجيل نفسه في المليشيا يتدنّى و ينحدر هو و ذرّيّته إلى طبقة الأهالي".

- **الأعلاج** (المهتدون) : لقد تمتّع الأعلاج أو المهتدون هم المسيحيّون الّذين اعتنقوا الإسلام، و يعرفون في المصادر الأوربية بالمرتدّين، بنفس الامتيازات الّتي تمتّع بها الأتراك، و ترتّب عن ذلك حضور قويّ لهذا العنصر في صفوف الانكشارية ؛ إلاّ أنّ القرصنة كانت مجال نشاطهم المفضّل، ففي سنة 1580، ضمّت طائفة الريّاس بين أفرادها حسبما ذكره هايدو اثنا و عشرين علجًا.

و لقد ارتقى العديد من الأعلاج إلى أعلى المناصب في السلطة، و هيمنوا على صفّ القيّاد حيث أحصى هايدو أحد عشر قايدًا من الأعلاج، مقابل ثمانية من الأتراك، و اثنان من العرب، و واحد من الكراغلة، و واحد "إسلامي" أي علج يهودي ؛ و شكّلوا جماعة متنفذة تجلّت مكانتها، إضافة على ذلك، فيعدد الولاة الّذين تولوا سدّة الحكم، ففي الفترة الممتدّة من 1537 إلى 1656 تعاقب ستّة و ثلاثون واليًا عثمانيًّا على حكم الجزائر، تسعة منهم كانوا أعلاجًا : يتعلّق الأمر بحسن أغا الخادم (1537-1545)، و قلج علي باشا (1568-1571)، و حسن باشا المعروف بحسن فنزيانو (1577-1580) و (1582-1583)، و جعفر باشا (1580-1582)، و محمد باشا، عتيق قارجه علي (1585-1587)، و سليمان باشا، عتيق قطانيه (1598-1603) و (1617-1618)، و رضوان باشا، عتيق رمضان باشا (1607-1610)، و حسين باشا الشيخ، عتيق قايه باشا (1621-1623)، (1627-1630) و (1632-1634)، و مراد باشا، عتيق إبراهيم رايس عرباجي (1623-1624) و (1650-1651).

و كان عددهم كبيرًا نسبيًّا في مجتمع مدينة الجزائر خلال القرن السادس عشر و النصف الأوّل من القرن السابع عشر، إذ قدّر هايدو سنة 1580 بأنّهم يمثّلون نصف سكّان المدينة، أو ما يقارب الخمسة و عشرين ألفًا ؛ و رغم أنّ هذا الرقم مبالغ فيه، إلاّ أنّه يعطينا صورة عن القوّة العدديّة للأعلاج آنذاك. و في 1634، كانوا بحسب بيير دان حوالي ثمانية آلاف رجل، إضافة إلى ألف أو ألفًا و مائتي امرأة ؛ ثمّ عرف عددهم انخفاضا تدريجيًّا بالموازاة مع تناقص عدد الأسرى الّذي شهده القرن الثامن عشر حتّى لم يبق منهم سوى مائتين أو ثلاثمائة في سنة 1769، ولم يعد لهم دور يذكر في سياسة البلاد كما كان قبل أزيد من قرن.

غير أنً فنتور دي بارادي لاحظ أنّ "**الأعلاج لهم أمل في الترقّي أكثر من الكراغلة، لكن لا يفسح لهم مجال الوصول إلى سدّة الحكم و إلى مناصب سامية أخرى... فقد تولى بعضهم منصب الكاهية، و آغا القمرين، و وكيل الخرج بينما لا يسمح لهم باعتلاء منصبي الخزناجي و الداي**".

**د.** محرز أمين